

الصلوة.. ذلك التناظر المدهش



ـ إن" (المواقف) التي اتخذها الإسلام إزاء القضايا المختلفة التي كانت تعرض له حيناً بعد حين، أيام دعوته الأولى كانت تجيء دائمًا موازية في حجمها وامتدادها لأبعاد القضية أو المشكلة المعروضة، متخذةً من الأساليب المادية أو الفكرية أو الروحية ما يكفل التغلب إليها، أو صياغتها بما يحقق انسجامها ومقاييس ومواصفات العالم الجديد الذي جاء الإسلام لكي يبنيه.

ولنأخذ مثلاً على ذلك "الفوضى" و"التسبيب" و"الانفلات" التي درج عليها القرون الطوال في جاهليته، ثم جاء الإسلام (بالنظام) الذي أراد أن يقابل به هذه السلبيات المتواصلة في أعماق العربي تأصل عاداته وأخلاقه الجاهلية جميعاً... وكان على ذلك الدين الجديد - إذن - أن يسحد كل" الطاقات ويعتمد كل" الأساليب لإحلال النظام محل" الفوضى، والانضباط محل" التسبيب والانفلات..

ونحن نقف هنا عند جانب واحد فحسب من جوانب محاولاته المتشعبية لتحقيق هذا الهدف.. ذلك هو استخدام الصلاة أخطر العبادات في الإسلام وأجلّها، للمساعدة على مواجهة الفوضى وتأثيل النظام في نفس العربي المسلم وفي علاقاته الاجتماعية على السواء.

لقد صُمِّمت الصلاة من حيث التوقيت والأداء الفردي والجماعي على السواء، تصميماً عجباً!! إز"ها وهي الفعل الذي يمارسه المسلم خمس مرات في اليوم وأكثر - جاءت، ضمن ما جاءت به من جوانب أخطرها ولا ريب الجانب التعديي الذي يقود إلى الاتصال اليومي بالـ سبحانه، بمتابة عملية تدريبية دائمة على التزام النظام والانضباط اللذين سرعان ما اكتسبا قدسيّة الصلاة نفسها، وغدا على المسلم، إذا ما أراد إتقان عبادته الأساسية هذه، أن يتلزم بها الزمني، والرياضي والجماعي التزاماً دقيقاً... وهذا التدريب، بحجمه الكبير ذاك، واستمراريته، وقدسيّته، وبُعده الروحي، يجيء ولا ريب موازناً لكل" سلبيات الفوضى والتسبيب قديراً على أن يتغلب عليها، جديراً باستئصالها من نفس العربي بمجرد انتقامه للإسلام والتزامه المحتموم بأداء الصلاة.

ولقد وصفت الصلاة بأنها كانت على المؤمنين (كتاباً موقوتاً)، ووسم الذين يتأخرون عن أدائها في أوقاتها المحددة بالكسيل والنفاق.. ورُفت درجات الذين يؤدونها في المسجد مع الجماعة إلى بعض

وعشرٍ من ضعفاً، وطلب من المصليين أن ينقووا صفوافاً متراصمة متوازية وأعلاً يتركوا ثغرة ولا خلل.. وقيل لهم أكثر من مرة، إن لا ينظر إلى المف الأعوج، وزعد بالذين يسبقون الإمام في الركوع والسجود، واستخدمت معهم، وهم حديث عهد بالبداءة، أشد الصور "التجسيمية" الساخرة لردهم عن ممارسة هذه الخطيئة في نظام الصلاة.. وقيل للذين يرفعون رؤوسهم إلى السماء، على هواهم، في أعقاب كل ركوع، بأنهم يعرضون أبعارهم - بذلك - لكي يخطفها !!

ترى لو لم يجا به العربي، حديث العهد بالبداءة والفووضى، بهذا الضبط وتلك الصراامة المتناهية في تحقيق النظام، أكان يمكن أن تنفذ تلك التجربة التعبدية الباهرة بذلك القدر من الهندسية والتناظر والاتساق، وسط صحراء لم تكن تعرف - حتى ذلك الحين - شيئاً من بداهات النظام؟!

ومن عجب أن يظل جانب التناظر والاتساق هذا في صلاة المسلمين يحمل طابع الجدة والجمالية على مر العصور، ويحمل إلى الإسلام، حيناً بعد حين، أناساً من أكثر مثقفي العالم نضجاً وإدراكاً ينتمون إلى أشد الأُمم التزاماً بالنظام وكراهيته للفوضى.. ▶

وأما منا حشد كبير من شهادات هؤلاء الذين انتموا لدينا في أعقاب رؤياهم المباشرة لهذا الأداء التعبدى الذى يصل حد "الموسيقية" في تناصفه الرياضي، ويحمل من وراء هذا "الشكل" المتناظر الجميل قلوبًا وأرواحًا يعمرها الحب، والإيمان واليقين!! ▶

المصدر: كتاب آفاق قرآنية